صرعى الحرب العالمية

يوم سلام في بريطانيا العظمى

« سلام على الراقدين تحت الثرى — سلام على الذين لا يعرفهم الاّ الله »

تحت ظلال الاشجار الباسقة ، وفي جوف الصحارى القاحلة ، وفي الرحاب المتسعة المترامية ، في جوف افريقية وفي شمالها وجنوبها ، وفي وديان آسيا وآكامها ، وفي جوف البحار العميقة ، في مياه المحيط الهادى وفي بحر الشمال وفي مضيق دوفر ، وفي البحر الابيض المتوسط مهد المدنية وفراش العمران الوثير ، وفي جوف بحر الظلمات مهد الخرافات والاساطير ، في جماع هـذه الاماكن وفي غيرها من كرة الأرض ، ترقد جثث صرعى الحرب العظمى ، جثث الابطال والبطلات ، الأبطال الذين دافعوا عن عقيدتهم وعن أوطانهم وعن حريتهم وعن اشلاء اسلافهم وعن مدنيتهم وعن تراثهم الـكبير ، والبطلات اللواتى سقطن تحت وابل الرصاص وهن يواسين جريحاً أو يحجبن عن الانظار قتيلا أو يجرعن يائساً شراباً يجدد في نفسه الامل ، او يواسين الانسانية في محنتها الـكبرى ومصيبتها العظمى . إلى هؤلاء من كل الامم ومن كل الاديان وفي كل بقاع الأرض ، نرسل من اعماق قلوبنا السلام .

بين يوم وليلة ، أو قل بين ساعة وأخرى ، نفخ في بوق الحرب وفار تنور الجلاد فهبت الأمم تنادى الى السلاح الى الســلاح ، واخذت تخوض المعارك عطشى صراع وقتال ، وما لبثت أن عادت بعدسنين قليلة كابي هزيمة وانـكسار . لافرق في ذلك بين غالب ومغلوب ، أو ناقز في ميدان الحرب ومنقور . فعلى رأى الجميع ، على السلالة البشرية برمتها ، وقعت الـكارثة الجتاحة ، ونزلت المصيبة

«المنشى» فى كلمته السالم الرادع فى عبقريته باسمه حظاً من مقاتل يحمل السلاح فى ساحة من ساحات الحرب ، فالكل اصبح للفقر نهباً وللموت غرضاً يصيبه ، ان لم يكن من ناحية الرزق ، فمن ناحية المرض ، فان لم يكن من هذا ولا ذاك ، فمن السماء تصب عليه الصواعق ، ومن البحر يرسل اليه بقذائف الغضب الانسانى وقد اندلعت ألسنته ، وتلظت نيرانه .

ورفعت الاكف الى السماء ، لا السماء التى يستدرون منها مراحم الله ، بل سماء التقاليد الانسانية ، تلك التى يحكم فيها شعور الاحساس بالذات ويتفوق الذاتية والانانية ، فعمد الزعماء الى جوف ماتحمل القواميس من كلمات ضخمة الرنات حاوية المعانى ، يستفزون بها الشعوب الى القتال والى التخريب إلى سفك الدماء ، حتى اصبحت الأرض وكأنها شعلة من نار تزكيها النزعات الانسانية الخسيسة . فما ان هبطت النيران بما صب عليها من المصائب قدراً أرجعها رماداً ، اخذ الزعماء ينظرون فلا يرون الا خراباً ، ويتطلعون يمنة ويسرة فلا تقع اعينهم الا على بلاقع ودماراً . واذا ببنى آدم ، من الزعماء الى الدهماء ، يستنكرون الحرب وينفرون من اسم الحرب ومن ويلات الحرب . واذا بهم يعقدون مؤتمرات السلام ، ويحيون ذكرى الموتى الذين ذهبوا ضحية لا بد منها لارضاء الشهوات وقرباناً يتقدمون به الى آله الحرب الكامن فى كل صدر ، القاطن فى كل جنان ، بل إن شئت فقل كفارة عما جنت ايديهم فى سالف عصورهم . وقد ظل اهل كل وطن يزكون نار الحقد الوطنى ، واهل كل دين يضرمون نار التعصب واهل كل مذهب ينفخون فى نار الكراهية والحفيظة ، بلا سبب معقول ولا غرض معروف .

نعم إنما جنت الانسانية غرس يدها ، وحصدت مازرع الوهم ، وما أثبتت التقاليد . التقاليد والاساطير الموروثة ، بل الاكاذيب الشائعة المقدسة التى تفعل فى الحياة الانسانية المعنوية ماتفعل حرارة الشمس فى الحياة الطبيعية . كلا

ضروري ، وكلاهما للحياة في طوقها الخاص بها سبب لا مفر منه . فكما غيرت التقاليد من الموروثات الانسانية ، وكما سمت بالفكر الانساني حيناً ، وهبطت به الى حضيض الجهل والفساد أحياناً ، كذلك كونت الشمس الحياة وكذلك الشمس تفنيها .

نرى لك في السماء خضيب قرن ولا نحصي على الأرض الطحينا
مشيت على الشباب شواظ نار ودرت على المشيب رحى طحونا
تديرين الموالد والمنايا وتبنين الحياة وتهدمينا
فيالك هرة أكلت بنيها وما ولدوا وتنتظر الجنينا

وأي شيء ننتظر من مدنية انسانية ، ظلت طوال السنين ترعى في خصيب من وديان الجهالة والعماء . مدنية قامت على فكرة الفوارق العصبية ، وبنيت على اساس التقاليد التي لم تكتف بالتفريق بين الناس فوق الأرض ، ففرقت بينهم في السماء ، هؤلاء إلى الجنة . وهؤلاء الى النار .

أي نتائج تنتظر من مقدمات شيدت على فكرة أن كل أمة هي الامة المختارة ، لا فوق الارض ، بل ايضاً في السماء ، السماء الغامضة ، السماء المستغلقة باسرارها ومخاوفها ، وانما هي التي يجب أن تحكم بقية الشعوب وانها دون غيرها لها حق الحياة والحرية دون بقية الامم التي يجب أن يكون افرادها عبيداً وإماء . بل اي شيء تنتظر من فكرات ثبتت في نفسية الشعوب وزكتها التعاليم الانسانية الجوفاء التي طبعت النفوس بطابع الفوارق العقلية والجنسية . لا شيء الاهم الا الحروب والقتال ، من اجل القتال لذاته ، لا لما يكون وراءه من فائدة ترجى أو كسب يجنى .

نسلم ولا بد لنا من ان نسلم ، بعد كل الابحاث الانثروبولوجية والاجتماعية التي وضع أساسها نخبة من كبار علماء هذا العصر . أن النزعة الى الحرب غريزة وانه كان لها من تكوين الشعوب والامم جولة كبرى وأثراً خالداً . ولكن اذا

سلمنا بهذا فلا يجب علينا ان ننسى أن الغريزة في أصلها عادة تعكف عليها الاحياء وتنشر بها الطبائع على مدى الازمان خطوة بعد أخرى ، وجيلا بعد جيل ، حتى تصبح عادة « لا شعورية تأتيها الاحياء بغير تنبه ولا تحكم الارادة . هذه العادة « اللاشعورية » هي بذاتها مانسميه عادة . بذلك قال داروين المعظم وجاراه في ذلك السواد الاكثر من علماء هذا العصر . لانه اذا كان لكل شيء نشوء ، فلابد من أن نعزو النشوء على اسباب يرجع اليها . وعندى أن تعليل الغريزة بانها عادة اصبحت مع « التسرب الزماني » فطرة « لاشعورية » أمر لايحتاج الى جدل . فاذا سلمنا بكل هذا فلماذا لا نسلم بان تدريب العقل البشري على حب الاحسان والقضاء على الفوارق التي دربته عليها غرائزه الوحشية يخرج الانسان من حيوانيته الأولى ويجعل عمل انصار السلام فسيحاً من ناحية عملية صرفه ؟ هذه مهمة يجب أن تلقى على عاتق الجامعات ومعاهد التربية . فان هذه الدرر التي نقول جوازاً بان لها في المدنية الضلع الأكبر ، كان لها ايضاً التقدم الفعلي في تزكية الغرائز الوحشية في صدور الناس . فتاريخ يكتب للتدريس على اساس الفوارق الوطنية جريمة ضد الانسانية ، ومحاضرة تلقى في النشء التذكر فيه النزعة الى كراهية الشعوب الاخرى استهانة بما للانسان من حقوق في هذه الحياة الدنيا ، وهدم لكل مايرغب فيه انصار السلام من القضاء على الحروب والنزعة اليها . كذلك أعتقد أن الاكباب على دراسة آداب الامم والتغلغل من طريق الأدب الى صميم مشاعرها وموحياتها العقلية والنفسية ، أساس من اكبر الاسس التي يجب أن يقدم عليها السلام ، ليكون فكرة ثابتة لا أمنية تشرئب إليها الأمم ، من غير أن يكون لها في قرارة النفوس دعامة تقوم عليها والتوريث أنفى للموروث ، كما أن القتل أنفى للقتل .

***

نكتب هذا بعد أن وقع في يدنا عدد من أعداد جريدة التيمس أصدرته

ملحقاً بمناسبة يوم الهدنة ، وتناولت فيه مقابر جيوش الامبراطورية الانجليزية التي تزكي في نفس الشعب الانجليزي ذكرى حرب انتصر فيها وذكرى ابطال ضحوا بانفسهم في سبيل المدنية .

وقد صدر العدد برسالة من ملكة الانجليز وجهت فيه الكلام الى الامهات الثاكلات اللاتي نعتقد أن الكلام اعجز عن أن يفرغ على قلوبهن صبراً ، او يحيي في نفوسهم ذكرى فلذات المتنزعات في قلوبهم .

واليك نص هذه الرسالة :

« رسالة من جلالة الملكة »

قصر بوكنجهام

في ٩ نوفمبر سنة ١٩٢٨

« ان كل الذين زاروا مقابر الحرب ، لابد من أن تكون قد اهتزت قلوبهم ، كما اهتز قلبي ، بما يغشاها من جمال برىء ، وبالعناية التامة التي تبذل نحوها . ونحن جميعاً نعرف أن « لجنة مقابر الحرب » تحيطها بنفس العناية اينما كانت المقابر وفي أية بلاد وجدت . »

« في هذه المقابر ترقد جثث كثيرات من النساء المضحيات المتقدمات ، وقد فقدن الحياة وهن يخدمن كممرضات أمن الجيش أو متطوعات ، أو ملحقات بالقسم الذي عرف باسمي » .

غير أن هؤلاء اللواتي سقطن في الميدان ، لسن بمفردهن اللواتي ضحين بكل ماتستطيع الحياة ان تقدم من تضحيات ، فان كل رجل من المليون الذي قتل منا في الحرب ، كان اعز من كل شيء لاحدى النساء وفي كل طرف من اطراف الامبراطورية اليوم تقع على اوليائكن اللواتي يعشن وفي قلوبهم جراح تعجز الأيام عن أن تلئمها » ،

«وانى لأرغب فى ان يصل صوتى الى كل منهن حاملا اليه كلمات التعطف القلبى»

«مارى»

وتقرأ بعد ذلك رسالة من ولى عهد الامبراطورية البريطانية ، البرنس اوف وايلس ، فيها من المعانى المتخالطة ماتعجز عن أن تدرك الى اى مدى تبلغ فى نفس الرجل الانجليزى . وعندى أن هذه الاشياء تنشر فى الناس الا ليجددوا ذكرى الحروب ولتخفى معالم الجريمة العالمية تحت ستار من الاعتذار عما بدر من شطط الانسانية .

وتأتى في النهاية على فصل عقده اللورد لويد المندوب السامى البريطانى عن قتلى الحرب في مصر وفيه اشارة الى من مات من العمال المصريين الذين رافقوا الحملات .

على أننا مهما كان لنا من رأى فى هذه المهازل الانسانية ، فان هذا لايحملنا مطلقاً على أن نغفل عن تقديس ذكرى أولئك الأبطال الذى لبوا داعى التضحية فى زمان فارت فيه النزعات الانسانية في ناحية كان من الواجب أن تصدها من ناحية اخرى نزعات تهبط من حرارتها . فان هؤلاء الذين ضحوا ، مهما كان التأثير الذى حفزهم الى التضحية ، لابطال خالدون يجب أن تترك ذكراهم من النفوس فى أخص منازل التقديس والاحترام